الحياة الأدبية فى فلسطين

للسيد محمد تقى الدين النبهانى

مدارس الأدب فى فلسطين مدرستان . مدرسة الشيوخ ومدرسة الشباب . ولا تستطيع وإن أجهدت نفسك أن تعثر بثالثة اللهم الا أثفية سفعاء . وهذا التقسيم قد يكون طبيعياً بل قد يكون عاما لا يمتاز به قطر ولا تستأثر به بلد ؛ غير أنه فى فلسطين غيره فى سواها ؛ فأدب الشيوخ فى أكثر الأقطار مطبوع بطابع المحافظة على القديم حتى لدى المجددين منهم ، وأدب الشباب كلف بالجديد حتى لدى المعتدلين من هؤلاء . واليك مصر زعيمة الأدب العربى تكاد تخضع لهذا المبدأ بالقوة إن لم يكن بالفعل ؛ فالزيات وطه حسين وهما من دعاة التجديد لا تقرأ لهما لغة ولا تمر بفكرة حتى تقرأ ما بين السطور المحافظة على التراث القديم . أما فلسطين فأدباؤها الشيوخ مشتجرون وأدباؤها الشباب منشقون ، ولا تستطيع أن تلمس فرجة تتاح لك منها فرصة التوفيق ، وإنه ليهون عليك أن تجد بعض الجامع بين الشيوخ والشباب ويعتاص عليك التوفيق بين رأى الشيوخ أو رأى الشباب . ولعل ذلك ناجم عن جزئية هذا الأدب وأن نهضته أسست على التقليد من غير أن تكون ملكة الاستقلال والنقد بارزة تميز صائب الرأى وتنفث خطله

ترى طائفة من الشيوخ أن الأدب فى رفض هذا النحو المألوف لدى العرب فى دراسة الأدب من إلمام بالقواعد ودراسة لجيد النثر ورصين الشعر ، وتذهب إلى أن كتب النحو وأسفار البلاغة من أمثال كتب الجرجانى والقزوينى حتى اليازجى وأسفار ابن هشام وابن مالك حتى الشرتونى والجارم يجب أن تحرق وينبغى أن تمحى ، وأن هذا الشعر وتلك الخطب التى قرضها أمثال حبيب ودبجها زملاء زياد لا يجوز أن نجعلها ثقاف أدب لعقول الأدباء ، وان لغة الصحف والكلام العادى الذى يكتب بعيداً عن الفن نائياً عن مقياس الأدب القديم هو التأدب الحق فكفى المرء أدباً أن يقرأ حتى لو أخطأ رفع المبتدأ ونصب الحال ما دام هو أو السامع قد فقه مغزى ما يريد . ويرضى من الكاتب أن يخط حروف الهجاء بكلمات تبين عن المعنى ولو مجملا حتى يضحى بعد مدة كل عربى قادراً أن يفهم الأدب اذا ما قدر أن يتلو الكلمة بعد معرفته ربط الحروف . وهذا رأى ينادى على نفسه بالخطل ويجعل القارىء فى شك من عقل صاحبه أو حسن نيته . ومن المؤسف أن نقول إن من القائلين به مفتشين فى المعارف وطائفة فى أيديها أمر اللغة العربية فى المدارس ، ولا نود ذكر الأسماء لأنا نخشى أن يظن ذلك منا هجاء

وتزعم طائفة أخرى أن الأدب فى التضلع من غرائب الكلم من مثل مبرنشق ومصمئل ، وأن من لم يحط علماً بذلك ويستوى على شعر تأبط شراً وذى الرمة ويستظهر خطب المأمون الجارتى ومقامات الحريرى لا يسمى أديبا

هذان رأيان من آراء الشيوخ وهما متناقضان ، فى أحدهما الهدم ، وفى الآخر الجمود ، لا تقوم بهما نهضة ، ولا يؤمل منهما إصلاح ، لولا أن هناك طائفة ترى وجوب السير فى نهج القديم والاستضاءة بضوء الحديث كرأى جمهرة الأدباء الذين أخذوا على عاتقهم حمل مشعل الأدب . وهذه الطائفة لها أثرها ولها أنصارها ، منها ذوو الطرابيش وأصحاب العمائم . غير أنه على غبطتنا بالطائفة الأخيرة ومقتنا للطائفة الأولى نقول : إن هذه الطائفة المعتدلة تقصر عملها وتحصر نهضتها فى غرف الدرس وحلقات السمر ، لم تخرج بعد ثمرة ولم تقم بمجهود ، وأن الاكثار انما هو لأولئك الهدامين ، يكتبون ويتحدثون بما يرون بما لا يكاد يصح أن يسمى لغة عربية ، ولا يكادون يقيمون لسانهم لحناً اذا ما تحدثوا دقيقة أو دقيقتين ، ولكنهم على ذلك مكثرون وعاملون ما سمحت لهم المقادير

وطائفة الغريب منتجة غير أنه قليل ، وعلى قلته لا يجد رواجا ولا ينفق الا فى سوق الراسخين

أما الشباب ففرقتان : فرقة كان موطن ثقافتها مصر ، وفرقة رضعت لبان الأدب فى فلسطين ولبنان ، وبذلك تباينت عقليتهما وانشقت آراؤهما

فالذين تثقفوا فى مصر يرون أن خير طريق لانهاض الأدب هى الطريق التى تسير فيها جمهرة أدباء مصر ، وهى أن تربية ملكة

الأدب فى دراسة نصوصه ونقد هذه النصوص وبحثها على المقياس الذى وضعه أولئك العلماء الذين أشفقوا على اللغة أن تضيع وخشوا فسادها على ضوء ما يجد من الآراء الصائبة وما يشرق من طرق البحث الأدبى النزيهة . ولذلك تجد هؤلاء يتقلبون بين صفحات الأسفار ويأرقون لتحبير الرسائل والكلمات وينتقلون بين المدن والدساكر ، يستملحون البيت من الشعر ، ويهشون للفقرة من النثر ، ويهتزون طرباً لرؤية كتاب حديث يلتهمونه التهاماً ، ثم يوسعونه نقداً ، ويفتقون ما يصح من رأى حصيف . وهؤلاء هم الذين يجاهدون فى النهضة ويضمون أنفسهم حراس الأدب . يحيطون علماً بسيره فى سائر الأقطار ويستلئمون لرد غارة دعى ، وصد هجمة متطفل على الأدب يكيد له . ومهما لاقوا من عنت ووجدوا من قسوة ، لا يأبهوا لما يكون حتى من أشد الشظف ، ويؤيدهم فى ذلك جمهرة من إخوانهم الذين تثقفوا فى لبنان ، وإن كان يكون بينهم نزر الخلاف

أما الفرقة الأخرى فهى تقصر الأدب على رقيق الغزل وبارع الخيال فى الكلم ، وما يبدع من مقالات الصحف السيارة . حتى ليعدون رئيس تحرير جريدة أديباً إذا ما أنشأ كلمة فى علاج شؤون البلاد ؛ وهؤلاء يريحون أنفسهم من عناء الدرس ، اللهم إلا فى كتاب حديث أو جريدة يومية ، أو مجلة فكاهية ، وجل مجهودهم قصيدة غزلية أو مقالة اجتماعية ينشرونها فى نهر جريدة ما . وهؤلاء لا نشك فى عقلهم ولا نرتاب فى نيتهم ، وإنما نفند رأيهم وندعى أن الميل الى الراحة ومتابعة الأهواء والجرى وراء غرائزهم هو الذى حدا بهم أن يسيروا فى هذا النحو ، وأن يعتنقوا هذا المبدأ ، ولعلهم بعد يؤوبون إلى الحق أثناء سيرهم فى قافلة النهضة السائرة ، وانه وان كثر أنصارهم باتخاذهم أصحاب الصحف أصدقاء ، وباهتبالهم فرصة هذه الصداقة لجعلها بوقاً لهم يرضون به غرورهم وينشرون رأيهم ؛ فهم أمام قوة الأدب الصحيح يضعفون ويضمحل معين أدبهم فانه سينضب ، وحينذاك يعلمون حق العلم انهم كانوا فى وادى الضلال يعمهون ، ومن ملح أجاج كانوا يشربون ويسقون

ولا يعجبن القارىء من عرض هذه الصورة ولا يدهش لهذا الاضطراب فى الحياة الأدبية فان المقادير تضافرت على خلق هذا الاضطراب ، وإن اختلاف السياسة خلق هذا التباين . ففلسطين كان أدبها معدوماً وكان أدباؤها غير مخلوقين قبل سنين ، فالأتراك كانوا يتآمرون على الأدب العربى حتى فى مصر ، فما بال فى فلسطين ؟ والأزهر كان حرباً على الأدب ذاك الوقت وخاصة الأغراب ، وجامعات مصر كانت تقفل أمام الفلسطينيين ، والحرب العامة كان لها أكبر الأثر ففتحت البلاد عينها على بقية القدماء وجمهرة من الدخلاء ثم أصحت فلسطين منتدباً عليه أو مستعمرة ، وقام على شؤون التأديب غرباء عن الأدب ، فكان ذ الركود ووجد ذاك السكون فى أوائل العقد الرابع من القر الرابع عشر الهجرى إلى أن فتحت جامعات مصر على مصراع لأبناء فلسطين واتجه الأزهر يعنى بالأدب ليتاح له تأدية رسالت وحضنت لبنان أبناء هذا البلد فرجعت جمهرة من الشبا اصطدمت بالقدماء واصطدم بعضهم ببعض فكان هذا الاضطرا وكانت هذه الحياة الأدبية المضطربة التى أظهرنا لك صورة مصغ دانية من الحقيقة وإن كانت المقادير لم تسمح بأن تكون ه الصورة أقرب إلى الحقيقة وأوضح مما قدمنا

. . . بيد أن هذا الاضطراب والاحتكاك يلمع ببرق أمل ؛ النهضة الأدبية ويبشر بانتظام حياة أدبية يجهد الشباب لايجاد ويستميلون معتدلى الشيوخ وأنضجهم آراء ، وما هى إلا لمحة حتى تتغير الحياة غير الحياة وتزهر رياض الأدب فى هذه البلاد العربية وتؤتى أكلها ثمراً شهياً

(حيفا) محمد تقى الدين النبهانى

ظهر حديثاً :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الجديدة

بقلم

أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد